الباب الثالث

علاقة الذات والأفعال وبعض الصفات ببعضها وموقف أهل السنة من التأويل والتفويض وبيان آثار الصفات الإلهية في النفس والكون والحياة وعلاقة الصفات بالحاكمية

الفصل الأول - وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول - العلاقة بين الصفات والذات.

المبحث الثاني - العلاقة بين الصفات والأفعال.

المبحث الثالث - طبيعة علاقة الصفات بعضها ببعض من حيث الآثار والمعاني.

المبحث الرابع - نفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيه.

الفصل الثاني - وفيه مبحثان:

المبحث الأول - موقف أهل السنة من التأويل.

المبحث الثاني - موقف أهل السنة من التفويض.

الفصل الثالث - وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول - آثار الصفات الإلهية في النفس والكون والحياة.

المبحث الثاني - لكل صفة من صفات الله أثر في القلب.

المبحث الثالث - وصف الله نفسه بالمغفرة لا يعني الإسراف في المعاصي.

المبحث الرابع - من لوازم استحقاق الله تعالى لصفات الكمال وحده تفرده سبحانه بالحاكمية.

الفصل الأول

علاقة الذات والأفعال وبعض الصفات ببعضها

المبحث الأول

العلاقة بين الصفات والذات

إن الإيمان بالله تعالى إنما يعني الإيمان بالذات العلية، والواجبة الوجود، وجوداً حقيقياً، والإيمان بصفاته العلى وأسمائه الحسنى معاً، وعندما يقول المؤمن: آمنت بالله إنما يعني هذا الإيمان الشامل أي الإيمان بذات لا تشبه الذوات متصفة بصفات الكمال التي لا تشبه صفات خلقه بل لصفاته حقائق ولصفات خلقه حقائق.

فانطلاقاً من هذا الإيمان الشامل فإن العلاقة بين الصفات والذات علاقة تلازم، ومعلوم أن الإيمان بالذات يستلزم الإيمان بالصفات، وكذلك العكس، لأنه لا يتصور وجود «ذات» مجردة عن الصفات، ولا يتصور وجود صفات بدون ذات قائمة فيها. وإذا تصورنا ذاتاً على حدة وتصورنا صفة على حدة، إنما هو تصور ذهني فقط ولذلك علاقة الذات بالصفات هي علاقة تلازم.

فالله تعالى واحد بأسمائه وصفاته، فأسماؤه وصفاته داخلة في مسمى اسمه «الله» وإن كان لا يطلق على الصفة أنها إلٰه أو خالق أو رازق، وليست صفاته وأسماؤه غيره، وليست هي نفس الإله بمعنى أن للذات مفهوماً وللصفات مفهوماً.

هنا فقط تثبت المغايرة أي في إثبات معنى ومفهوم للصفات غير مفهوم الذات[1].

---

(1) الصفات الإلهية بتصرف، ص (341، 342).

وقد علم في منهج أهل السنة أن الإيمان الصحيح هو الإيمان برب متصف بصفاته وأسمائه حقيقة واحدة لا تتجزأ أي رب واحد بأسمائه وصفاته سبحانه.

وهذا المفهوم الصحيح الذي قد فهمه سلف هذه الأمة، وسلموا به من الخوض في بحث العلاقة بين الذات والصفات، إذ لم يحدث ما يدعو إلى ذلك.

بل القول المؤيد بالأدلة العقلية والنقلية أن صفة الله تعالى داخلة في مسمى أسمائه، فمن استعاذ بصفة من صفات الله تعالى أو حلف بها فإنما استعاذ بالله وحلف به تعالى ومبحث (هل الحلف بصفة من صفات الله يمين) يأتي في المباحث القادمة - إن شاء الله - .

وهكذا يتضح أنه لا ينبغي إطلاق المغايرة بين الصفات والذات، وأن صفات الله تعالى ملازمة لذاته تعالى لا تنفك عنها، فمن آمن بالله فإنما آمن بالله سبحانه وبأسمائه وصفاته، ومن كفر بصفة واحدة من صفات الله فقد كفر بالله تعالى وسائر صفاته[1].

المبحث الثاني

العلاقة بين الصفات والأفعال

والمقرر عند أهل السنة: أن أفعال الله سبحانه وتعالى تابعة لحكمته التي لا بخل فيها، وأنها مقصورة لغايتها المحمودة وعواقبها الحميدة قال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 23]. لكمال حكمته ووضعه الأشياء مواضعها، وأنه ليس في أفعاله خلل ولا عبث ولا فساد يسأل المخلوق، وهو الفعال لما يريد فلا يفعل إلَّا ما هو خير ومصلحة ورحمة

(1) الصفات الإلهية بتصرف، ص (343).

وحكمة، فلا يفعل الشر ولا الفساد ولا الجوْر ولا خلاف مقتضى حكمته، لكمال أسمائه وصفاته، وهو الغني الحميد العليم الحكيم[1].

وكونه فعالاً لما يريد معنى ذلك أنه لا يتم شيء إلَّا بإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته، وليس شيء في العالم يخرج عن تقديره ولا يصدر إلَّا عن تدبيره ولا محيد عن القدر والمقدور، ولا يتجاوز من خط في اللوح المسطور، وأراد ما العالم فاعلوه ولو عصمهم لما خالفوه ولو شاء أن يطيعوه جميعاً لأطاعوه، خلق الخلق وأفعالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم، يهدي من يشاء بحكمته[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر: 49]. وقال أيضاً: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [سورة الفرقان: 2]. وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [سورة الحديد: 22].

المبحث الثالث

طبيعة علاقة الصفات بعضها ببعض من حيث الآثار والمعاني

المعلوم لدينا أن صفات الله تعالى، صفات كمال، وأسماؤه تعالى كلها حسنى لأنها متضمنة للأوصاف، فالعلاقة بين الأسماء والصفات أن الصفات من معاني الأسماء، ومأخوذة منها غالباً، ثم إن أسماء الله تعالى كلها أوصاف كمال وصفاته كلها أسماء حسنى، وهي أعلام وأوصاف في وقت واحد. والوصف بها لا ينافي العلمية بخلاف أوصاف العباد فإنها تنافي العلمية في الغالب، إلَّا أسماء رسول الله ﷺ، فإنها تتضمن الأوصاف كالحاشر، والعاقب، والماحي، ومحمد ﷺ، فمن أسمائه تعالى: العليم، الحكيم، السميع، البصير مثلاً فهذه أعلام دالة على الذات العلية المتصفة بالعلم

(1) انظر: طريق الهجرتين، لابن القيم، ص (414).
(2) لمعة الاعتقاد، لابن قدامة، ص (89).

والحكمة والسمع والبصر، وهكذا سائر صفات الله تعالى، فصفات الله تعالى يمكن أن يقال فيها: إنها مترادفة كلها بالنسبة لعلاقتها بالذات حيث تورد كلها على موصوف واحد كما يليق به وهو الله سبحانه وتعالى. وأما بالنسبة لبعضها فقد تكون مترادفة من حيث المعنى أو متقاربة مثل المحبة والرحمة والفرح والتعجب والضحك، بل نستطيع أن نقول: إن الصفات التي ذكرت بعد المحبة في هذا السياق إنما هي آثار من آثار المحبة غالباً وما أكثر آثارها، وهناك صفات متقابلة: كالرفع والخفض والإعزاز والإذلال، والعطاء والمنع والظاهرية والباطنية، والنفع والضر[1] يدل على هذا قوله عليه الصلاة والسلام وهو يثني على الله سبحانه: «**أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء**»[2].

وهناك صفات متضادة من حيث معانيها: مثل الغضب والسخط مع الرضى ومثل الكراهة مع الحب إن اتصافه تعالى بهذه الصفات المزدوجة، المأخوذة من أسمائه المتقابلة، وبالصفات المتضادة في معناها على ما تقدم، والمترادفة باعتبار الذات، والمتباينة باعتبار ما بينها في الغالب الكثير، إن الاتصاف بهذه الصفات لهو الكمال الذي لا يشاركه فيه أحد لدلالته على شمول القدرة الباهرة والحكمة البالغة، والتفرد بشؤون الكون كله[3].

المبحث الرابع

نفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها، قال تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[4] [سورة الأعراف: 180].

(1) الصفات الإلهية، ص (347).
(2) أخرجه مسلم في الدعوات (1/ 36) مع شرح النووي.
(3) تابع الصفات الإلهية، ص (349).
(4) مدارج السالكين، بتصرف (1/ 28، 29).

لأنها لو لم تكن تدل على معاني وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها، ويوصف بها ولكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات: 58]. فعلم أن «القويّ» من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [سورة فاطر: 10]. فالعزيز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قوياً ولا عزيزاً. وهكذا في سائر أسمائه.

وحقيقة الإلحاد فيها - أي في أسمائه تعالى - العدول فيها عن الصواب فيها، وإدخال ما ليس من معانيها فيها، وإخراج حقائق معانيها عنها.

أولاً - أن تسمى بعض المعبودات باسم من أسماء الله تعالى أو يقتبس لها اسم من بعض أسمائه تعالى، كتسمية المشركين بعض أصنامهم «اللات» أخذاً من «الإله» و «العزى» أخذاً من «العزيز» وتسميتهم الأصنام أحياناً «آلهة» وهذا إلحاد واضح كما ترى لأنهم عدلوا بأسمائه تعالى إلى معبوداتهم الباطلة.

ثانياً - تسميته تعالى بما لا يليق به كتسمية النصارى له «أباً» وإطلاق الفلاسفة عليه «موجباً لذاته» أو علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك.

ثالثاً - وصف الله تعالى بما ينزه عنه سبحانه، كقول اليهود - عليهم لعنة الله - إنهُ فقير وقولهم إنه استراح، بعد أن خلق خلقه وقولهم أيضاً يد الله مغلولة، وغير ذلك من الألفاظ التي يطلقها أعداء الله قديماً وحديثاً.

رابعاً - تعطيل أسمائه تعالى عن معانيها وهي الصفات وجحد حقائقها كما فعلت المعتزلة حيث جعلوا أسماء الله ألفاظاً مجردة لا تدل على الصفات، كقولهم سميع بلا سمع، وعليم بلا علم.

خامساً - تشبيه الله تعالى بصفات خلقه[1].

---

(1) بدائع الفوائد، لابن القيم، بتصرف (1/ 169).

الفصل الثاني

موقف أهل السنة من التأويل والتفويض

المبحث الأول

موقف أهل السنة من التأويل

معنى التأويل في اللغة: له أربعة معاني:

1 - المعنى الأول: المرجع والمصير والعاقبة[1].

2 - المعنى الثاني: التعبير.

3 - المعنى الثالث: التفسير.

وقد ذكر صاحب لسان العرب أن التأويل والتفسير معنى واحد[2].

4 - المعنى الرابع: الوضوح والواضح يرجع معناه إلى معنى التفسير لأن التفسير معناه الكشف، والإبانة[3].

معنى التأويل في الاصطلاح: وينقسم التأويل في الاصطلاح إلى قسمين:

الأول - التأويل في استعمال السلف وأهل اللغة المتقدمين.

الثاني - التأويل في اصطلاح المتأخرين من المتكلمين والأصوليين والفقهاء والمتصوفة.

---

(1) تاج العروس (7/ 214، 215).

(2) انظر: لسان العرب (11/ 33).

(3) لسان العرب (5/ 55).

أما الأول - فالتأويل: في استعمال السلف وأهل اللغة المتقدمين يطابق معناه اللغوي المتقدم: العاقبة والتفسير، فيأتي بمعنى العاقبة؛ وهو الغالب في استعمال القرآن الكريم، ويأتي بمعنى التفسير؛ وهو اصطلاح الصحابة والسلف وكثير من أهل العلم[1].

أما الثاني - وهو اصطلاح المتأخرين: فمعناه: (صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل)[2].

وقد فصل ذلك شيخ الإسلام في كتبه وذكر أن من معاني التأويل معاني عديدة: أحدها: (إن التأويل بمعنى التفسير، وهذا هو الغالب على اصطلاح المفسرين للقرآن، كما يقول ابن جرير وأمثاله من المصنفين في التفسير، واختلف علماء التأويل، ومجاهد إمام المفسرين إذ ذكر أنه هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الأعراف: 53][3].

فتأويل ما في القرآن من أخبار المعاد هو ما أخبر الله به فيه مما يكون من القيامة والحساب والجزاء، والجنة والنار ونحو ذلك، كما قال تعالى في قصة يوسف لما سجد أبواه وإخوانه: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ﴾ [سورة يوسف: 100]. فجعل عين ما وجد في الخارج هو تأويل الرؤيا.

والثالث - أن التأويل هو صرف اللفظ من الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو اصطلاح كثير من المتأخرين من المتكلمين في الفقه وأصوله، وهذا التأويل في كثير من المواضع، أو أكثرها وعامتها من باب تحريف الكلم عن مواضعه[4].

---

(1) انظر: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد، بتصرف (2/ 536).
(2) التعريفات للجرجاني، ص (24).
(3) الرسالة التدمرية، ص (29).
(4) الرسالة التدمرية، ص (29)، الفتاوى (ج1/ 68، 69).

● بعض أقوال أهل السنة في الموقف الصحيح من صفات الله تعالى:

ومعلوم لدينا في مذهب أهل السنة أن الأخبار في صفات الله موافقة لكتاب الله تعالى، نقلها الخلف عن السلف، قرناً بعد قرن من لدن الصحابة والتابعين إلى عصرنا هذا، على سبيل إثبات الصفات لله تعالى، والمعرفة والإيمان له، والتسليم بما أخبر الله تعالى في تنزيله، والرسول ﷺ عن كتابه، مع اجتناب التأويل، وترك التكييف والتمثيل والجحود.

وهذا **الإمام أبو حنيفة** رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «فما ذكره الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه، واليد والنفس، فهو له صفات بلا كيف، ولا يقال إن يده قدرته أو نعمته ولأن فيه إبطال الصفة، وهو قول أهل القدر والاعتزال، ولكن يده صفة بلا كيف، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته تعالى بلا كيف»[1].

وكان **الزهري ومكحول** يقولان: «أمروا هذه الأحاديث كما جاءت»[2].

وهذا **ابن تيمية** يقول: «إن جميع ما في القرآن من آيات الصفات، فليس بين الصحابة اختلاف في تأويلها، وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة، وما رووه من الحديث، ووقفت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مائة تفسير فلم أجد إلى ساعتي هذه عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئاً من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاه المفهوم المعروف، بل عنهم من تقرير ذلك وتثبيته، وبيان أن ذلك من صفات الله ما يخالف كلام المتأولين ما لا يحصيه إلَّا الله»[3].

ومعلوم عند علماء الأمة من أهل السنة والجماعة أنه لا يتم إيمان أحد

---

(1) شرح كتاب الفقه الأكبر (58-59).
(2) شرح أصول السنة، اللالكائي (3/ 430، 431).
(3) مجموع فتاوى ابن تيمية (6/ 394).

بتوحيد الأسماء والصفات حتى يترك التأويل ويؤمن بجميع الصفات على مراد الله وما بيّنه رسوله ﷺ وما فهمه أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

● والأدلة على بطلان مذهب التأويل كثيرة نورد بعضها خوفاً من الإطالة:

أولاً - إن ما أثبته السلف - رضوان الله عليهم - من مسائل العقيدة هو من عند الله والكتاب والسنة قد دلا عليه.

أما المتأولة فلا يملك أحدهم أن يدعي من الذي نفاه من دلالة النصوص، أو ما أوله عليها من المعاني البعيدة، لا يستطيع أن يقول هذا من عند الله جازماً ذلك[1].

ثانياً - القول بمذهب التأويل يلزم منه أن يكون الصحابة والسلف بين أمرين، كليهما باطل.

إما أن الصحابة لم يفهموا الحق في ذلك، وأن ظواهر هذه النصوص باطلة أو أنهم علموا الحق وفهموه ولكنهم كتموه ولم يقوموا بواجب النصح للمسلمين وكلا الأمرين باطل، لا يصح ولا يستقيم في حق السلف والصحابة رضوان الله عليهم.

ثالثاً - حالة المتأولة هذه تجعلهم يُخْضِعون النصوص إلى معطيات العقل والحس، فخرجوا عن حد الاتصاف بالإيمان بالغيب.

رابعاً - المتأولة يردون النصوص إلى اعتقاداتهم وأصولهم الباطلة وإن كانت واضحة في الحجة والإثبات.

خامساً - التأويل من أسباب تفرق الأمة وتمزقها والاختلاف في أصول

---

(1) انظر: علاقة الإثبات والتفويض بصفات رب العالمين، رضا معطي، ص (13).

الدين، وجعل بعضهم يلعن بعضاً، وبعضهم يكفر بعضاً، وترى طوائف منهم تسفك دماء الآخرين، وتستحل منهم الأنفس والأموال والأعراض[1].

والأدلة كثيرة في إبطال مذهب التأويل.

المبحث الثاني
موقف أهل السنة من التفويض

● معنى التفويض في اللغة:

(الفاء والواو والضاد، أصل صحيح يدل على اتكال في الأمر ورده عليه)[2].

● معنى التفويض في الاصطلاح:

هو رد العلم بنصوص الصفات والمعاد إلى الله تعالى: إما معنى وكيفية، أو كيفية فقط، وعليه فالتفويض قسمان:

الأول - تفويض المعنى والكيفية، وهو ما عليه بعض الخلف.

الثاني - تفويض الكيفية دون المعنى، وهو مذهب السلف وإن لم يجر على اصطلاحهم تسميته تفويضاً، بل المعروف عنه إثبات[3].

حقيقة مذهب أصحاب التفويض

هم طائفة من المنتسبين إلى السنة واتباع السلف وتعارض عندهم المعقول والمنقول فأعرضوا عنهما جميعاً، بقلوبهم وعقولهم بعد أن هالهم ما

---

(1) من منهج الاستدلال في الاعتقاد، بتصرف (2/ 64، 65، 66).
(2) معجم مقاييس اللغة (4/ 260).
(3) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة (2/ 579، 580).

عليه أصحاب التأويل من تحريف للنصوص وجناية على الدين، فقالوا في أسماء الله وصفاته وما جاء في ذكر الجنة والنار، والوعد والوعيد إنها نصوص متشابهة لا يعلم معناها إلَّا الله «تعالى» وجعلوا الوقف في آية آل عمران ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: 7]. عند لفظ الجلالة[1].

التفويض ليس مذهباً للسلف

وهذا معلوم لدى المطلع على أقوال أهل السنة أن تفويض المعنى والكيف غير مراد عند السلف، وإنما يفوضون الكيف، أما المعنى المراد من الآيات والأحاديث التي تظهر من ظواهر النصوص المعلومة بلغة العرب التي نزل بها القرآن وخاطبهم بها رسول الله ﷺ فهي معلومة عند أهل السنة ولا يفوضون معناها.

ويقول ابن تيمية في هذه المسألة: «إن كان المراد من الظاهر صفات الخلق فلا شك في أنها غير مراد، وإن كان المراد من الظاهر المعاني التي تظهر من الآيات، والأحاديث مما يليق بجلال الله وعظمته، ولا تخص بصفات المخلوقين، فلا ريب في أن السلف كانوا يؤمنون بهذا والظاهر بهذا التحديد ولا ينفونه مطلقاً، ومن ينفي عن السلف الإيمان بمعاني آيات الصفات وأحاديثها فقد أخطأ، أو تعمد الكذب، إذ ما نقل عن واحد من السلف لا نصّاً ولا ظاهراً إلَّا ما يدل على أنهم كانوا يعتقدون أن الله فوق العرش وأن له سمعاً وبصراً ويداً حقيقية»[2].

ولو اطلعت على كتب السلف وسيرتهم لظهر لك أن التفويض ليس مذهباً للسلف لعدة أسباب ظهرت لي من خلال بحثي:

---

(1) درء تعارض العقل، بتصرف (1/ 15)، شرح الطحاوية، ص (531).
وللاستفادة في هذا الباب على القارىء أن ينظر إلى كتاب رضا النعسان «علاقة الإثبات والتفويض»، ورسائل منهج الاستدلال في مسائل الاعتقاد.

(2) الحموية، ص (64).

1 - إن الآيات القرآنية التي تضمنت هذه الصفات الكريمة لله تعالى من الاستواء والمجيء، والرضا والغضب، والمحبة... إلخ وأحاديث رسول الله ﷺ وأقوال بعض الصحابة عن هذه الصفات لله ﷻ يدل على أن المقصود منها الإثبات لا غير.

2 - إن الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، ومن جاء بعدهم من علماء السلف، تدل على أن مذهبهم إنما هو إثبات الصفات لله سبحانه وتعالى.

3 - كثير ممن صنف في العقائد، ومن المتقدمين بيّن أن مذهب السلف هو إثبات المعنى، وإنما التفويض في الكيف.

4 - إن الذين صنفوا في العقيدة من المتقدمين قد ذكروا الأحاديث التي تتعلق بالصفات ضمن أبواب رسائلهم، حتى أن ابن خزيمة أطلق على كتابه في ذلك اسم: كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ، باب في إثبات وجه الله، وباب في إثبات العين لله، وباب في ذكر استواء خالقنا العلي الأعلى، باب في صفة تكلم الله بالوحي، وهكذا فعل كثير ممن صنف في العقيدة السلفية مثل: الدارمي، والإمام أحمد، وابن أبي عاصم والهدوي، واللالكائي، والآجري، والبيهقي، وأبو الحسن الأشعري، وابن بطة، وغيرهم.

5 - تبويب المحدثين لأحاديث الصفات في كتبهم دليل قاطع أيضاً على أن مذهب السلف هو إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ مثل تبويب البخاري باب قول الله ﷻ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [سورة القصص: 88]. وباب قول الله ﷻ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [سورة طه: 39].

ونكتفي بهذه الأسباب وإن كانت في مجملها كثيرة خوفاً من الإطالة.

شبهة والرد عليها وهي اتهام السلف بالتفويض

خيل لبعض الباحثين أن عصر السلف قد انقضى دون أن يحدث واحد منهم عن هذه القضية، وقالوا إن السلف كان مذهبهم هو السكوت والتفويض؛ لأنهم لم يشتغلوا بالبحث في هذه القضية، لانشغالهم بأمور الجهاد ونشر الدعوة، ولأنهم من جانب آخر لم تكن لديهم الدراية العقلية اللازمة لبحث هذه الأمور[1].

الرد على هذه الشبهة الباطلة

وهذا القول فيه إجحاف ومغالطة وجهل بموقف السلف، وهنا شبهة لا بد من بيانها، فإن المتأخرين من علماء الكلام قد اعتبروا أن آيات القرآن التي تحدثت عن الصفات الإلهية من المتشابه الذي كفَّ السلف أنفسهم عن الخوض فيه وفوضوا علمه إلى الله، ولذلك شاع في كتبهم أن مذهب السلف هو الكف والتفويض، وهذا القول ليس صحيحاً على إطلاقه، ذلك أن السلف لم يقل واحد منهم: إن آيات الصفات متشابهة لا يعلم معناها إلَّا الله، ولم ينقل إلينا عن واحد أن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [سورة البروج: 14] [2] من المتشابه الذي لا يعلمه إلَّا هو، أو أن معناها يشبه بمعنى قوله: ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [سورة آل عمران: 4]. بل معنى آيات الصفات تكلم فيه السلف وأدلى كل منهم بقوله، ولذلك لم يكلفوا أنفسهم عن البحث في معنى الآية؛ لأن القرآن نزل بلغة العرب وبألفاظهم والذي كف السلف أنفسهم عن الخوض فيه هو تحديد كيفية الصفة التي تحدثت عنها الآية، ولذلك يجب التنبيه إلى الفرق بين

---

(1) انظر: كتاب التوحيد مع إخلاص العمل لوجه الله ﷻ، ص (31).

(2) وقد استفدت من كتاب المفسرين بين التأويل والإثبات للمغراوي وصفتها بأسلوبي مع إضافة بعض ما ظهر لي من خلال دراستي لهذا الموضوع (ج1، ص 41: 43).

الموقفين، فالسلف قد تكلموا في معاني الصفات وآياتها، ولكن كفُّوا عن الحديث في كيفيتها أو تحديدها[1].

وخلاصة مبحث التفويض عند السلف في باب الصفات: هو أن التفويض عند السلف في الكيفية فقط، فلا يعلم كنه الصّفات إلَّا الله، لذلك يفوضون علم الكيفية للخالق سبحانه، أما المفوّضة وهم مذهب مبتدع وبعيد عن السلف في هذا الباب، فإنهم يفوضون اللفظ والمعنى ويعتقدون أن ظاهر الصفة غير مراد، ولذلك فهم يرون آيات الصفات من المتشابه، ومن ثم لم يعلم رسول الله ﷺ ولا صحابته وهذا ضلال مبين. والسلف يكرهون كثرة البحث والخوض في آيات الصفات وتعتبر عندهم من البدع المكروهة.

والنهي عن طلب التكييف في ذات الله وصفاته معلوم عند السلف، وذكر ذلك الأصبهاني في كتابه: «الحجة في بيان المحجة» وغيره من علماء أهل السنة والجماعة[2].

واستدل بحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «يسألكم الناس عن كل شيء حتى يسألوكم: هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله؟»[3].

وعلاج ذلك هو الإمساك عن الخوض في هذه الأمور، والاستعاذة من لشيطان الرجيم، وقراءة سورة الإخلاص.

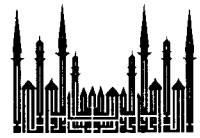

(1) انظر: كتاب التوحيد مع إخلاص العمل لوجه الله تعالى، ص (31).
(2) انظر: الحجة في بيان المحجة، (ج 1/ 92، 93).
(3) البخاري، فتح الباري-كتاب الاعتصام، باب: ما يكره من كثرة السؤال (13/ 279) رقم (7296)، الصواعق المرسلة (1/ 215-216).

الفصل الثالث

آثار الصفات الإلهية في النفس والكون والحياة وأثر كل صفة في القلب وعلاقة الصفات بالحاكمية لله تعالى

المبحث الأول

آثار الصفات الإلهية في النفس والكون والحياة

ومشهد الأسماء والصفات من أجل المشاهد والمطلع على هذا المشهد يعرف أن الوجود متعلق خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى والصفات العلى، ومرتبط بها، وإن كل ما في العالم بما فيه من بعض آثارها ومقتضياتها.

فاسمه الحميد، المجيد، يمنع ترك الإنسان سُدى مهملاً معطلاً، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب، وكذلك اسمه «الحكيم» يأبى ذلك، وهكذا فكل اسم من أسمائه له موجبات وله صفات فلا ينبغي تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها، والرب تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسماؤه، فهو عفوّ يحب العفو، ويحب المغفرة ويحب التوبة، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه فرحاً لا يخطر بالبال.

وكان تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله، ويحلم عنه ويتوب عليه ويسامحه بموجب أسمائه وصفاته، وحصول ما يحبه ويرضاه من ذلك. وما يحمد به نفسه ويحمده به أهل سمٰواته وأهل أرضه، وما هو من موجبات كماله ومقتضى حمده وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما.

ومن آثارهما: مغفرة الزلات، وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات، والمسامحة على الجنايات، مع كمال القدرة على استيفاء الحق، والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها فحلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته

عن كمال عزته وحكمته[1] كما قال الله على لسان عيسى عليه السلام في القرآن: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة المائدة: 118].

أي: فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك لست كمن يغفر عجزاً، ويسامح جهلاً بقدر الحق، بل أنت عليمٌ بحقك، قادر على استيفائه حكيم في الأخذ به.

فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات في العالم، وفي الأمر، تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد، وتقديرها: هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال وغايتها أيضاً مقتضى حمده ومجده، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته. فللَّه في كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة، والآيات الباهرة.

والله سبحانه دعا عباده إلى معرفته بأسمائه وصفاته وأمرهم بشكره ومحبته وذكره، وتعبدهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ لأن كل اسم له تعبد مختص به، علماً ومعرفة وحالاً، وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر، فلا يحجبه عبودية اسم عن اسم آخر، كما لا يحجبه التعبد باسمه «القدير» عن التعبد باسمه «الحليم الرحيم» أو يحجبه عبودية اسمه «المعطي» عن عبودية اسمه «المانع» أو عبودية اسمه «الرحيم والعفو والغفور» عن اسم «المنتقم» أو التعبد بأسماء «البر والإحسان واللطف» عن أسمائه «العدل والجبروت والعظمة والكبرياء» وهذه طريقة الكمال من السائرين إلى الله، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [سورة الأعراف: 180]. والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الثناء ودعاء التعبد[2].

وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها.

---

(1) انظر: مدارج السالكين، ص (417، 418).
(2) انظر: مدارج السالكين (2/ 49).

فالله سبحانه وتعالى يُحب موجب أسمائه وصفاته، فهم «عليم» يحب كل عليم، وهو «جَوَادُ» يحب كل جواد، «وتر» يحب الوتر، «جميل» يحب الجمال، «عفو» يحب العفو وأهله، «حَيي» يحب الحياء وأهله، «بَرٌّ» يحب الأبرار، «شكور» يحب الشاكرين، «صبور» يحب الصابرين، «حليم» يحب أهل الحلم. فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة، والعفو والصفح: خلق من يغفر لهم ويتوب عليهم ويعفو عنهم، وقدر عليهم ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض له، ليترتب عليه المحبوب له المرضيّ له[1].

وظهور أسماء الله وصفاته في هذه الحياة وفي النفس البشرية وفي الكون كله واضح، لا يحتاج إلى دليل، إلَّا إن الاهتداء إلى تلك الآثار أو لانتباه لها يتوقف على توفيق الله تعالى، بل إن التوفيق نفسه من آثار رحمته لتي وسعت كل شيء.

فلو فكر الإنسان في هذا الكون الفسيح وفي نفسه لرجع من هذه الجولة الفكرية بعجائب، واستفاد منها فوائد ما كان يحلم بها، ولو تأملنا هذه الآية الكريمة لرأينا أموراً تعجز عن التعبير عنها قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة المؤمنون: 115 - 116].

ومما يدلل ويؤكد أهمية هذا التوحيد هو ما تثمره أسماء الله وصفاته في قلب المؤمن من زيادة الإيمان ورسوخ في اليقين، وما تجلبه له من النور والبصيرة التي تحصنه من الشبهات المضللة والشهوات المحرمة[2].

فهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة، فكل اسم من أسماء الله له تأثير في القلب والسلوك، فإذا أدرك القلب معنى الاسم وما يتضمنه واستشعر ذلك، تجاوب مع هذه المعاني وانعكست هذه المعرفة على تفكيره وسلوكه.

---

(1) انظر: مدارج السالكين (2/ 420).

(2) انظر: دراسات في مباحث توحيد الأسماء والصفات، للتميمي (14، 15).

ولكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها، فالأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح فمثلاً: علم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً، وعلمه بسمعه وبصره وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض وأنه يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه فيثمر له ذلك الحياء باطناً، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح، ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية[1] الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه.

وكذلك معرفته بجلال الله وعزته تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها.

وكذلك علمه لكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية، فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها[2].

وهذه الأحوال التي تتصف بها القلوب هي أكمل الأحوال، وأجلّ وصف يتصف به القلب وينصبغ به، ولا يزال العبد يمرن نفسه عليها حتى تنجذب نفسه وروحه بدواعيه منقادة راغبة، وبهذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية، فنسأل الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه، فإنه أكرم الأكرمين وأجود الأجودين[3].

---

(1) انظر: مفتاح دار السعادة (2/ 90).
(2) انظر: مفتاح دار السعادة (2/ 90) لابن القيم.
(3) انظر: القواعد الحسنى لتفسير القرآن، للسعدي (130).

المبحث الثاني

لكل صفة من صفات الله أثر في قلب المؤمن

وقد يظن بعض الذين يدَّعون العلم، وممن لا حظّ لهم من علوم الشريعة، أنّ معرفة أسماء الله وصفاته لا تؤثر في الإيمان بالله من حيث الزيادة والنقصان، ولا تؤثر في القلوب، ولذلك لا فائدة من معرفتها أو جهلها أو إثباتها أو إنكارها، وقد توسع في هذا الجانب الفلاسفة الذين وصفوا الله تعالى بصفات من عند أنفسهم وأنكروا وجحدوا ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، ومما لا ريب فيه أنه ليست هناك صفة لله في القرآن أو في السنة إلَّا وقد ساقها الله تعالى لحكمة ومنفعة وغاية، ولولا ذلك لما ساقها ولما ذكرها؛ لأن كلامه وكلام رسوله ﷺ ينزه عن العبث واللغو والحشو.

ومن ظن أن الله يحشو كلامه بما لا فائدة في ذكره أو لا غاية من ورائه أو لا أهمية له فقد اتهم الله بالنقص واللغو، ولبيان أن لكل صفة من صفات الله أثراً في قلب المؤمن سنبين ذلك ببعض التفصيل في الصفحات القادمة من حيث إن لكل صفة في القلب أثراً يتضح ذلك، ويخرج في السلوك البشري فلا توجد صفة من صفات الله إلَّا ولها أثر وفائدة، وإنما الذي ينكر الأثر هم الجهلة والجاحدون، أما علماء أهل السنة والجماعة فبينوا ذلك الأمر بياناً أوضح من الشمس في رابعة النهار.

أثر صفة العظمة

وهذه الصفة مشتقة من اسمه تعالى العظيم، والعظمة صفة من صفات الله لا يقوم لها خلق، والمقصود أن عظمة الله سبحانه لا يمكن أن يتصف بها أحد من خلقه، والله خلق بين الخلق عظمة يعظم بها بعضهم بعضاً، فمن الناس من يُعظم لمال، ومنهم من يُعظم لفضل، ومنهم من يُعظم لعلم، ومنهم من يُعظم لسلطان، ومنهم من يُعظم لجاه، وكل واحد من الخلق إنما يُعظم لمعنى دون

معنى، والله ﷻ يُعظم في الأحوال كلها، فينبغي لمن عرف عظمته سبحانه أن لا يتكلم بكلمة يكرهها الله، ولا يرتكب معصية لا يرضاها الله[1]. فإذا شعر العبد بعظمة الله خاف مولاه واتقاه ورغب في مرضاته سبحانه وتعالى.

والحديث الدال على صفة العظمة قول رسول الله ﷺ: «**يقول تبارك وتعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار**»[2].

أثر صفة يد الله

ومن الصفات التي جحدتها قلوب النفاة، وأنكرها الزنادقة قديماً، وصف الله نفسه سبحانه وتعالى بأن له يدين، وهذا ما قد مدح الله به نفسه في آيات كثيرة من كتابه، وقد مدحه بها النبي ﷺ في أحاديث كثيرة، وقد بينتها بالتفصيل في مبحث صفات الله الذاتية، وقد بين سبحانه في الآيات والأحاديث عظمة عطاء وسعة فضل وأن يده الكريمة جلَّ وعلا دائمة العطاء والإنفاق، وفي مجال قوته وجبروته وبطشه وكمال قدرته وبيان عظمته أن السمٰوات والأرض يوم القيامة تكون بيمينه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة الزمر: 67].

ولا شك أن أثر الإيمان بهذه الصفة في قلب المؤمن عظيم؛ لأنها تورث القلب المهابة لله والخوف منه وتعظيم أمره وشأنه، وأنه الملك الذي قهر الملوك، وأنه لا مفر من قبضته، ولا ملجأ منه إلَّا إليه.

---

(1) الحجة في بيان المحجة، بتصرف (1/ 130).

(2) أخرجه أبو داود رقم (4090)، وابن ماجه (4174)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم (541).

أثر اسم الله الحميد

وهذا الاسم يتضمن لصفة الحمد بكل أنواعه، فهي صفة ذاتية لله ﷻ لا تنفك عنه، وتظهر آثارها باستمرار في كل لحظة، ومعناها أنه سبحانه مستحق لكل أنواع الحمد، لأنه المحمود في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وليس لأحد سواه سبحانه، كما يبدو لي أن العبد لا بد أن يسلك في حياته سلوكاً يحمد عليه، لأن أعماله جميعاً يجب أن تكون خالصة للحميد، ولو أن كل فرد تحرى أن يكون عمله حميداً لصلح أمر الناس في الدنيا والآخرة، ولاختفت المنازعات فيما بينهم والخصومات ولعاشوا جميعاً إخوة في الله متحابين[1].

أثر اسم الله المهيمن

ومن آثار هيمنته سبحانه أنه يملك أن يتصرف في خلقه كيف يشاء لأنهم ملكه، والمالك من حقه أن يتصرف في ملكه بكافة أنواع التصرف، ومن نماذج هذه التصرفات من ذكره الله تعالى تنبيهاً وتذكيراً، باستمرار وشمول هيمنته على خلقه سبحانه وتعالى[2].

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

[سورة الأنعام: 63 - 65].

---

(1) انظر: مفهوم الأسماء والصفات، مقال في مجلة الجامعة الإسلامية للشيخ سعد ندا، ص (70، 71)، العدد (59).

(2) انظر: مفهوم الأسماء والصفات مقال في مجلة الجامعة الإسلامية للشيخ سعد ندا، ص (80)، العدد (59).

وإذا شعر القلب بهيمنة ربه عليه لجأ إليه وطلب العون منه لدفع ضر أو جلب نفع، والآيات في هذا الباب كثيرة، وكذلك أحاديث الرسول ﷺ.

أثر صفة العلو في قلب العبد

إذا أيقن العبد أن الله تعالى فوق السماء، عالٍ على عرشه بلا حصر ولا كيفية، وأنه يُعرف الآن في صفاته كما كان في قدمه، وكان في قلبه في صلاته وتوجهه ودعائه، ومن لا يعرف ربه بأنه فوق السماء على عرشه، فإنه يبقى ضائعاً لا يعرف وجهة معبوده، ولكن ربما عرفه بسمعه، وبصره، وقدمه وتلك بلا هذا معرفة ناقصة، بخلاف من عرف أن إلهه الذي يعبده فوق الأشياء، فإذا دخل في الصلاة وكبر، توجه قلبه إلى العرش منزهاً له تعالى، مفرداً له كما أفرده في قدمه وأزليته.

ويعتقد أنه في علوه قريب من خلقه، وهو معهم بعلمه وسمعه وبصره، وإحاطته، وقدرته، ومشيئته، وذاته، فوق الأشياء، فوق العرش، ومتى شعر بذلك في الصلاة أشرق قلبه، واستنار، وأضاء بأنوار المعرفة والإيمان وعكفت أشعة العظمة على قلبه، وروحه، ونفسه، فانشرح لذلك صدره، وقوي إيمانه، ونزه ربه عن صفات خلقه، ومن الحصر والحلول، وذاق حينئذ شيئاً من أذواق السابقين المقربين[1].

ويجب على دارس الأسماء والصفات وعلى قارئ كتاب الله تعالى وأحاديث رسوله ﷺ أن يتأمل معاني هذه الصفات وما دلت عليه ليستشعر المراقبة الكاملة التامة من الله تعالى حتى تقبل جميع حركاته وسكناته، حتى يجني ثمرة إيمانه بتلك الصفات في حياته العلمية ونضرب لذلك مثلاً أخيراً وهي صفة السمع[2].

---

(1) انظر: النصيحة في صفات الرب جلَّ وعلا للواسطي، ص (50).

(2) كتاب الأربعين في دلائل التوحيد، بتصرف من تعليق الشيخ علي بن ناصر، ص (25، 26).

أثر صفة السمع

يقول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [سورة المجادلة: 1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا . . .﴾ [سورة المجادلة: 1]»[1].

أقول: لو أن دارس الصفات ومدرسيها تأملوا ما دلت عليه هذه الصفات، وأشعر المرء نفسه أنه مراقب في جميع أحواله وأن ما ينطق به لسانه يسمعه خالقه من فوق سبع سمٰوات في حينه وأنه سيجازيه على ذلك، لانعكس على سلوكه وأخلاقه وأعماله وسيرته في مجتمعه، ولظهرت الأخلاق الربانية وأصبح الشخص وليًّا يمشي على وجه الأرض، ولشعر أن الأخلاق الرفيعة ثمرة من ثمرات التوحيد، وبقدر ما يملك العبد من الإيمان والتوحيد ينعكس ذلك ويظهر على أخلاقه.

المبحث الثالث

وصف الله نفسه بالمغفرة لا يعني الإسراف في المعاصي

وصف الله سبحانه نفسه بأنه غفار وغفور للذنوب والخطايا والسيئات لصغيرها وكبيرها، وحتى الشرك إذا تاب منه الإنسان واستغفر ربه قبل الله توبته وغفر له ذنبه، قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الزمر: 53]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء: 110].

---

(1) رواه البخاري، كتاب التوحيد تعليقاً (13/ 384).

مهما كبرت ذنوب هذا الإنسان فإن مغفرة الله ورحمته أعظم من ذنوبه التي ارتكبها، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [سورة النجم: 32].

وقد تكفل الله سبحانه بالمغفرة لمن تاب وآمن، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [سورة طه: 82].

ومن فضله وجوده وكرمه تعهد أن يبدل سيئات المذنبين إلى حسنات ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة الفرقان: 70].

ولكن لا يجوز للمسلم أن يسرف في الخطايا والمعاصي والفواحش بحجة أن الله غفور رحيم، فالمغفرة إنما تكون للتائبين الأوابين[1].

قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [سورة الإسراء: 25]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة النمل: 11]. فاشترط تبدل الحال من عمل المعاصي والسيئات إلى الصالحات والحسنات لكي تتحقق المغفرة والرحمة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [سورة النساء: 48].

يبين الله أن المقيم على الشرك حتى الوفاة لا غفران لذنوبه؛ لأنه لم يبدل حسناً بعد سوء، وكذلك قوله تعالى عن المنافقين: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [سورة المنافقون: 6][2]. لأنهم لم يخلصوا دينهم لله ولم يصلحوا من أحوالهم، وأما إذا حصل ذلك فإن المغفرة تحصل لهم مع المؤمنين قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: 146]. فلا بد من الأخذ بالأسباب المؤدية إلى المغفرة، وأما إن مات وهو مقيم على الكبائر من غير أن يتوب، فإن مذهب أهل السنة والجماعة، أنه

(1) النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، بتصرف للمحمود، ص (150، 151).
(2) النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، بتصرف، ص (152).

ليس له عهد عند الله بالمغفرة والرحمة، بل إن شاء غفر له وعفا عنه لفضله كما قال ﷻ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سورة النساء: 48].

وإن شاء عذبه في النار بعدله، ثم يخرجه منها برحمته، وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم يدخله الجنة، وذلك للموحدين خاصة[1].

من لوازم استحقاق الله تعالى لصفات الكمال وحده تفرده سبحانه بالحاكمية

اعلم أن الله ﷻ بين في آيات كثيرة، صفات من يستحق أن يكون له الحكم، فعلى كل عاقل أن يتأمل الصفات المذكورة التي سنوضحها الآن إن شاء الله تعالى، ويقابلها مع صفات البشر المشرعين للقوانين الوضعية، فينظر هل تنطبق عليهم صفات من له التشريع سبحان الله وتعالى عن ذلك.

فإن كانت تنطبق عليهم - ولن يكون - فليتبع تشريعهم، وإن ظهر يقيناً أنهم أحقر وأخس وأذل وأصغر من ذلك، فليقف عند حدهم، ولا يجاوز بهم إلى مقام الربوبية، سبحانه وتعالى أن يكون له شريك في عبادته، أو حكمه أو ملكه، فمن الآيات القرآنية التي أوضح بها تعالى صفات من له الحكم والتشريع قوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة الشورى: 10].

ثم قال مبيناً صفات من له الحكم: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الشورى: 10 - 12].

فهل من الكفرة الفجرة المشرعين للنظم الشيطانية من يستحق أن يوصف بأنه الرب الذي تفوض إليه الأمور، ويتوكل عليه، وأنه فاطر السمٰوات

(1) شرح الطحاوية، بتصرف، ص (416، 421).

والأرض وخالقها ومخترعها، على غير مثال سابق، وأنه هو الذي خلق للبشر أزواجاً وخلق لهم أزواج الأنعام الثمانية المذكورة[1].

وفي قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [سورة الأنعام: 143] الآية. وإنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: 11].

وإنه: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الشورى: 12]. وأنه سبحانه وتعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الشورى: 12]. أي يضيقه على من يشاء وهو بكل شيء عليم.

فعليكم أيها المسلمون أن تفقهوا صفات من يستحق أن يشرع ويحلل ويحرم، ولا تقبلوا تشريعاً من كافر خسيس حقير جاهل[2].

ومن الآيات الدالة على ذلك: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف: 26].

فهل من الكفرة الفجرة المشرعين من يستحق أن يوصف بأن له غيب السمٰوات والأرض؟ وأن يبالغ في سمعه وبصره لإحاطة سمعه لكل المسموعات وبصره بكل المبصرات؟ وأنه ليس لأحد دونه من ولي؟ سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً[3].

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة القصص: 88]. فهل من الكفرة الفجرة المشرعين من يستحق أن يوصف بأنه الإله الواحد؟ وأن كل شيء هالك إلَّا وجهه؟ وأن الخلائق يرجعون إليه؟

تبارك وتعالى وتعاظم وتقدس ربنا أن يوصف أخس خلقه بصفاته[4].

---

(1) أضواء البيان، بتصرف (7/ 163).
(2) أضواء البيان، بتصرف (7/ 165).
(3) أضواء البيان، بتصرف (7/ 165).
(4) أضواء البيان، بتصرف (7/ 165).

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [سورة غافر: 12].

سبحانك ربنا وتعاليت عن كل ما لا يليق بكمالك وجلالك، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة القصص: 70 - 73].

فهل من مشرعي القوانين الوضعية، من يستحق أن يوصف بأن له الحمد في الأولى والآخرة، وأنه هو الذي يصرف الليل والنهار مبيناً بذلك كمال قدرته وعظمة إنعامه على خلقه؟ سبحانه خالق السمٰوات والأرض، جلَّ وعلا أن يكون له شريك في حكمه أو عبادته أو ملكه[1].

وعلى الدعاة إلى الله الذين يهتمون بالدعوة إلى تحكيم شرع الله تعالى أن لا يهملوا تعليم الناس لصفات ربهم؛ لأن في نشر بقية الصفات في الأمة أعظم معين لهم على تذكير الناس بربهم ودفع الناس إلى امتثال أوامره واجتناب نواهيه واستحقار شأن الجبابرة من ملوك الأرض الذي يشرعون لأنفسهم ولشعوبهم ما لم يشرعه الله، ولاستطاعوا تنفير الناس عن التحاكم إلى الطواغيت؛ بل أقنعوا الناس بضرورة التحاكم إلى الملك الجبار الذي تتضاءل في يده السمٰوات والأرض[2].

---

(1) أضواء البيان، بتصرف (7/ 166).

(2) الرد على من أنكر توحيد الأسماء، بتصرف، للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق (26).